ثائر مهنته العلم
وهوايته تقطيع رقاب الملوك

« الشرق ... الشرق خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ... فوجدت أقتل أدوائه ، داء انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد » .

« جمال الدين الأفغاني »

هل نحن نعيش فوق الأرض ، نمشي ونقف ، نتحرك ونسكن ؟! أو أننا مثل الأرض نلف وندور ؟!

هل الزمن مسافات وأبعاد ... أعوام وأيام ... ماض وحاضر ومستقبل ؟! أو أنه حلقة ليس فيها بدء حتمي أو نهاية حتمية ؟ فبدايتها يمكن أن تكون نهاية ، ونهايتها يمكن أن تكون بداية !

هل يستطيع الإنسان فى هذه الحلقة المفرغة ـ التى نسميها

زمناً ـ أن يتمرغ ويتدحرج ، فيرجع إلى الماضى ويقفز إلى المستقبل ؟

لا أدرى ، كل ما أدريه أنى تدحرجت وتمرغت بخيالى ومعلوماتى خلال حلقة الزمن ، وانتقلت من مكانى فى عام ١٩٦١ إلى مجلس العالم الثائر المفكر . . . جمال الدين الأفغانى فى عام ١٨٧٩ ليلة نفيه من القاهرة وقلت له ، وقال لى . . .

* * *

استيقظت القاهرة صباح يوم ٢٢ أغسطس من عام ١٨٧٩ ، ولاحديث للناس إلا عن جمال الدين الأفغانى . . الرجل الذى عاش فى مصر ثمانية أعوام ينشر أفكاره الثائرة الحادة فى الدين ، والاجتماع ، والسياسة . بأسلوب جديد ، تنطلق منه الكلمة كالقنبلة . . . تدوى وتنفجر !

وقد وقف إلى جانب الشعب يحضه على الثورة ضد الإقطاع والاستعمار ، ووقف إلى جانب الدين يدرأ عنه الخرافات ، ويحميه من جهل المنتسبين إليه ، المتحدثين باسمه ، الذين ظفروا بألقاب كبار العلماء ، ومشايخ الإسلام ، ومنعوا العلوم الحديثة من أن تدخل الأزهر الشريف . . . فالطبيعة

والكيمياء كفر... والحساب والجبر زندقة، والفلسفة إفك «وسفه!» والاجتهاد فى المسائل الدينية حرام، واشتغال رجال العلم بالأمور السياسية والاجتماعية بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار!

ولكن تعاليم الأفغانى كانت تيارًا قويًّا... سارت الأمة كلها فى اتجاهه، كانت الكهرباء التى مست العقول والمشاعر فأيقظتها، وأثارتها. وشنَّت الدوائر الرسمية على الأفغانى حربًا شعواء، واستعانت عليه بعلماء الدين فاتهموه فى عقيدته، وكانوا يسمونه «ضلال الدين الأفغانى»... ويحذرون الطلبة من الاتصال به أو الاستماع إلى آرائه.

وكان خطر الأفغانى أضخم من أن يقاومه جهل الخديو، وضعف الحكومة، وسذاجة أرباب العمائم واللحى فى تلك الأيام!

وأدركت تلك الدوائر أنه لا جدوى من التغلب على الأفغانى بالتشويش والمهاترة، وإطلاق الألسنة فى شرفه وعقيدته... الشىء الوحيد الذى يقهر الأفغانى هو اختفاؤه حيًّا أو ميتًا!

وانطلقت الإشاعات فى هذا اليوم تؤكد أن الخديو توفيق سيقتل الأفغانى، أو يسجنه، أو ينفيه.

واتجه أبناء القاهرة إلى الحى الحسينى... حيث الأزهر الذى كان قلعة تحصن فيها أعداء الشيخ المفكر الثائر، وحيث خان الخليلى الذى اتخذ الشيخ من بيوته سكنًا يجتمع فيه بتلاميذه وأنصاره.

... اتجهت جماهير الشعب إلى هناك لتلقى آخر نظرة على الرجل الذى علمهم كيف ينظرون... واقتحمت على الشيخ مجلسه، كان حوله الوجيه سليم الحجازى، وعبد السلام المويلحى، وإبراهيم المويلحى، والأديب عبد الله النديم، وشبان كثيرون عرفت منهم الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، وإبراهيم اللقانى، وعلى مظهر، وسليم نقاش، وأديب إسحق، ويعقوب صنوع!

وكان الشيخ ينفث دخان سيجارته بحدة وشغف، ولا تكاد السيجارة تنتهى... حتى يكون تابعه «أبو تراب» قد لف سيجارة أخرى وقدمها إليه. وعلى مائدة الشيخ عدد كبير من أباريق الشاى، وكان يصب لضيوفه الشاى فى الأقداح

بنفسه... وهو يصغى لكل كلمة، ويجيب عن كل سؤال، والضجيج يملأ المقهى... ضجيج الباعة الجائلين ونداء الصبيان بالطلبات: «قهوة»، «نارجيلة»، «جوزة»، «شاى أحمر»، «شاى أخضر»، «شاى كشرى»... وقرقعة الطاولة، والمجاذيب الذين يصيحون: ياحى... ويهتفون بالصلاة على النبى! وزعيق الزبالين وهم خليط من المعممين، والمطربشين، ولابسى الجلاليب بلا جاكتات، وبينهم الشامى، والمغربى، والسودانى، والمصرى، والحجازى، واليمنى، والتركى، والعراقى، والإيرانى، وفيهم أهل التقوى وأهل الفجور... والمسابح تتشابه فى يد التقى ويد الفاجر! وبينهم شواذ... يدخنون الحشيش فى النارجيلة، ويجالسون الغلمان!

وبرغم هذا الجو كان مجلس الشيخ مهيبًا يحترمه كل من يراه... حتى الضجة كانت تحتشم إذا ما اقتربت من مجلس الشيخ... فتسمع صوته عميقًا، صافيًا، هادرًا، وهو يتحدث عن مشكلات العلم والدين والاجتماع والسياسة، بصراحة، وتدفق، كانت كلماته واضحة كلون الشاى... متدفقة كإبريق الشاى! وكانت إشارات يديه معبرة... تكاد تسمع فيها رنين الكلمة! وهنا... أدركت لماذا وصفوا جمال الدين الأفغانى

بأنه كان يصب الشاى بيد، وينثر الحكمة باليد الأخرى!

وكان على مظهر شابًا وديعًا، يبدو من قسمات وجهه أن فى عروقه المصرية دمًا تركيًا.. عيناه زرقاوان، وبشرته بيضاء، وقد امتد على فمه شارب جميل. حذاؤه اللامع، وطربوشه الملتوى المكتوى المائل إلى اليمين فوق رأسه، وملابسه الأنيقة، تدل على أنه من أصحاب الثراء الذين لم يمارسوا العرق!

وكان يتابع حديث الشيخ برهبة وإرهاب. يصغى بأذنيه، يصغى بعينيه، يصغى بأطراف رأسه. لم يشترك فى الأحاديث التى دارت بكلمة أو إشارة، أو همهمة.

وكان طيلة الجلسة يطوق صدره بكلتا يديه، كأنما يخشى أن يسقط من صدره شىء وعاه من الشيخ وهو يتحدث!!

واستأذن الشيخ فى الانصراف إلى مسجد الحسين وقال إنه عائد بعد ساعة.

ومشى الشيخ ومن ورائه محمد عبده، وعبدالله النديم، وسليم الحجازى، وعبدالسلام المويلحى، وإبراهيم المويلحى، وتابعه الخاص أبو تراب.

ووقف كل من فى المقهى إجلالا للشيخ... بعضهم اتجه

إليه، وصافحه وقبل يده، أو حاول أن يقبلها... وبعضهم وقف مكانه وفى يده مسبحة أو فم نارجيلة، وكان أبو تراب خلال ذلك يبتسم للناس فى نشوة، مؤكداً لهم بغمزات عينيه وتحريك أصابعه، أن الشيخ سيعود بعدما يؤدى الصلاة...

وانتهزت هذه الفرصة... وخلوت بعلى مظهر وسألته: لماذا لم يفتح فمه بكلمة عندما كان جالسًا مع الشيخ؟! فقال: خشيت أن تفوتنى منه فكرة أو تعبيرة أو تكشيرة أو ابتسامة. إن مولانا الأفغانى يعطينا الحكمة فى كل حركاته، وسكناته!!

قلت له: ولماذا لم تصحبه إلى المسجد؟

فقال: اعتقدت أن عنده ما يريد أن يخص به الذين دعاهم للذهاب معه.

- ومن هؤلاء الذين معه؟

قال: عبد السلام المويلحى وجيه كبير، وإبراهيم المويلحى أعظم كتاب هذا العصر...

قلت: ومن يكون عبد الله النديم؟

قال: هذا مفكر عصامى علم نفسه بنفسه، وتطور من

« أدباق » إلى أديب كبير ينظم الشعر والزجل، ويخطب، وله تأثير شديد فى تغيير أفكار الجماهير. ولا أحد يضارعه فى الكتابة باللغة العامية... إلا يعقوب بن صنوع « أبونضارة »، وهو يهودى.

قلت : النديم يهودى !!

قال : النديم مسلم... اليهودى هو أبو نضارة يعقوب بن صنوع.

قلت : وما علاقة الأفغانى المسلم بهذا اليهودى ؟

قال : إن مولانا يؤمن بتضافر العقليات الشرقية... سواء كانت مسلمة أو مسيحية أو يهودية... للتحرر من الاستعمار الأوربى، وطغيان الملوك على اختلاف أسمائهم... سلطان أو خديو أو شاه !

ثم مدّ يده مشيراً إلى أحد الشبان وقال : أتعرف من هذا ؟

قلت : رأيته فى مجلس الشيخ.

قال : هذا شاب لبنانى مسيحى اسمه أديب إسحاق عرف مولانا مواهبه... فأدناه منه، وعاونه على إصدار جريدة فى

القاهرة اسمها «مصر» وكان السيد جمال الدين الأفغانى يشرف على سياستها ويكتب فيها مُقالات.. يوقعها باسم مستعار... هو «مظهر بن وضاح»، ثم أرسله إلى الإسكندرية... حيث أنشأ جريدة يومية هى «التجارة» وأغلقها رياض باشا ناظر النظار!

قلت: وأبو نضارة هذا... هل هو صحفى؟

قال: إن يعقوب بن صنوع شاعر، وكاتب، وزجال، وابن نكتة، ويتقن عدة لغات، ويعرف التشخيص، ويفكر أفكاراً هزلية. أما أبو نضارة... فهو اسم المجلة التى عاونه مولانا على إصدارها فى عهد الخديو إسماعيل، وكان مولانا يرى وجوب إنشاء مجلة تكتب للفلاحين بلغتهم، وقلنا له: وما الفائدة من ذلك ما دام الفلاح لا يعرف القراءة بلغته الفصحى؟

فقال: إن الفلاح يسمع ما فى الجريدة... فإذا سمع لغة فصيحة لم يفهم بسهولة، وإذا سمع لغته الدارجة فهمها بسرعة... والأمة فى حاجة إلى أن تفهم بسرعة!

قلت: ومن يكون سليم الحجازى؟

فقال : سليم باشا الحجازى رجل معروف، عندما زارت الأفغانى لأول مرة... كان الخديو إسماعيل قد نكب البلاد بالديون التى أخذها من الدول الأوربية، وبلغ مجموعها ٩٥ مليون جنيه... أنفقها على نزواته ومظاهر أبهته. وتدخلت الدول الدائنة فى شئوننا عقب وصول بعثة «كيف» إلى مصر عام ١٨٧٥، وأنشئت مصلحة للرقابة على مالية مصر، وكانت هذه الرقابة تحكمنا وتتحكم فينا، وتستولى على أقواتنا. وتوجه سياستنا واقتصادياتنا.

وثار السيد جمال الدين الأفغانى على الحال التى آلت إليها مصر.. وكان يقول : إنى لأعجب منك أيها الفلاح... تشق الأرض بفأسك باحثًا عن رزقك... لماذا لا تشق بهذه الفأس صدور ظالميك ؟!

وكان مولانا يحض على الخلاص من إسماعيل، ويصف حكمه بأنه هوان للشعب، وقهر، وظلم، وسخرة، وجسر يعبر فوقه الغزاة من المستعمرين... ليلووا رقابنا، ويحنوا ظهورنا، ويستنزفوا منا الدم والعرق والكرامة.

وأخذ سليم الحجازى يستمع إلى السيد الأفغانى فى تأثر،

واستجابة وبغتة... وقف منتفضًا، وهو يقول: كفى يا مولانا... فإنك إذا لم تسكت... فسوف أذهب الآن وأقتل الخديو إسماعيل.

قال الأفغانى: وما الذى يمنعك من قتله؟

قال سليم باشا: أخشى على ابنى فؤاد... أخشى أن يثأروا منه.

فقال الأفغانى: إذا كان هذا هو المانع... فاقتل ابنك فؤاد... ثم اقتل الخديو إسماعيل؟

- وهل كان الأفغانى يكره إسماعيل إلى هذا الحد؟

قال على مظهر: كان يكره الملوك إلى أقصى حد، لأنه يحب الشعب والحق والعدل.

وها هو ذا مولانا قد عاد ومعه تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده... فاجتهد أن تخلو بالشيخ عبده وتسأله: كيف ذهب ليقتل بنفسه الخديو إسماعيل؟

- الشيخ عبده يقتل؟!

قال: اسأله... وسوف يجيبك!

وساد أرجاء المقهى جو من الاهتمام.

وقف الجالسون وأغلقت لعب النرد « الطاولة » وارتفعت أصوات الكراسى والجرائد، وهى تبعد عن الزبائن لتتيح لهم فرصة استقبال جمال الدين وتحيته بلمسات الأيدى، أو بنظرات العيون.

وأقبل الشيخ يحف به محمد عبده، وأبو تراب، والعلم، والجلال، والمهابة... وهو يحاول أن يتوارى فلا يستطيع... وقار يريد أن يخف! وتواضع أشد سطوة من الكبرياء!

كان الذكاء والسحر والتمرد يشع من عينيه الواسعتين ويعلو العينين حاجبان أشبه بخنجرين من شعر ناعم كثيف، يفصل بينهما أنف أشم، وعلى جانبى الوجه خدان بارزان، وقد غطى الشعر أذنيه، ووقف شاربه مؤدبًا عند فمه بدت شفتاه المليئتان واضحتين تنطلق منهما الكلمة، والضحكة، والآهة الساخرة، والآهة الثائرة... ولم أر ذقنه فقد اختبأ فى لحية مستديرة جميلة!

الجبهة عريضة والرأس كبير، ولون البشرة قمحى، أما قوامه فقد حار بين الطول والقصر، والنحول والبدانة، ليس

طويلا ولا قصيراً، ليس ناحلا ولا بديناً، ولكنه على الحياد!

واتجه الشيخ إلى بيته القريب من المقهى، وبقى تلاميذه فى انتظار عودته.

واقتربت من الشيخ محمد عبده وسألته عما تردده القاهرة من إشاعات عن الإمام الأفغانى، فقال: كل شىء جائز!

- هل يعتقلونه؟ هل يقتلونه؟ هل ينفونه؟

فقال محمد عبده: ربما... فهذا كله يحتمل أن يكون... ولكن الذى يستحيل أن يكون... هو أن يعتقلوا أفكار جمال الدين، أو يقتلوا مبادئه، أو ينفوا تعاليمه.

- وهل اقترف الأفغانى جريمة؟

وقال محمد عبده: المجرمون يريدون أن يعاقبوا الأفغانى على الجرائم التى اقترفوها هم...

- لماذا إذن يحاربه كبار العلماء؟

وهنا قفز شخص لم أعرفه، وقال: لأنهم ليسوا كباراً، وليسوا بعلماء!

وسألت الشيخ محمد عبده: هل أستطيع أن أظفر بتوجيه

بضعة أسئلة إلى السيد جمال الدين الأفغانى فى مكان آخر غير هذا المقهى ؟

وقال الشيخ محمد عبده : إنه لم يتعود الجلوس هنا إلا منذ أيام قليلة، فهو يعقد اجتماعاته فى بيته. ومقهاه المختار هو قهوة البوستة بالعتبة الخضراء.

* * *

وفى هذه اللحظة وصل السيد جمال الدين الأفغانى وجلس بين تلاميذه وأصدقائه، ودنوت منه وسألته فى غباء : من أنت ؟

فضحك، وقال : أنا جمال الدين الحسنى الأفغانى.

ـ ما هو تاريخ مولدك ؟.

قال : فى عام ١٢٥٤ هجرية (١٨٣٨ بالتاريخ الميلادى).

ـ هل تنحدر من سلالة فارسية ؟

قال : لقد تمت ولادتى فى الأفغان، وأسرتى عربية مسلمة تنتمى إلى الحسن بن على بن أبى طالب.

ـ وما هو سر اهتمامك ببلاد أخرى غير الأفغان ؟

قال : لقد نظرت إلى الشرق وأهله، واستوقفتنى الأفغان،

وهى أول أرض مس جسمى ترابها، ثم الهند... وفيها تثقف عقلى... فإيران بحكم الجيران والروابط... فجزيرة العرب من حجاز ويمن ونجد، والعراق، والشام، والأندلس.

الشرق... الشرق... وقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه، فوجدت أقتل أدوائه... داء انقسام أهله، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم، وتنبيههم للخطر المحدق بهم.

- هل مارست السياسة فى بلد آخر غير مصر؟.

قال: مارستها فى بلدى، ووصلت فيها إلى مركز رسمى يماثل منصب الوزير، ولكن المناصب وسيلة وليست غاية. وقد حاولت أن أنقذ الأفغان من تدخل الدول الأجنبية، فلما لم أستطع... توجهت إلى فارس، وهناك اختلفت مع الشاه... لأنه يريد أن يقيم عرشه على جماجم الشعب... كما هو الحال هنا... وفى كل بلد يحكمه ملك.

- ألا يمكن أن يكون الملك عادلا؟

قال: يمكن أن يكون عادلا... إذا أصبح تاجه بلا رأس

أو أصبح رأسه بلا تاج ! !

كم سنة أقمت فى مصر؟

قال : أكثر من ثمانى سنوات، وكنت قد زرتها قبل ذلك، وأقمت فيها شهرين، ثم عدت إليها فى أول المحرم عام ١٢٨٨ (مارس ١٨٧١)، وظللت فيها إلى اليوم. . . يوم ٢٣ أغسطس من عام ١٨٧٩.

- وما الذى جذبك إلى مصر؟

قال : ما جذبنى إلى غيرها من بلاد تعانى شعوبها الظلم والعبودية مثل فارس، والهند، والحجاز، وتركيا، . . . وقد حاولت فى تلك البلاد أن أغرس شجرة الإصلاح الدينى والتحرر الاجتماعى، والسياسى، ولكنى لم أجد التربة والجو لنمو هذه الشجرة إلا هنا. . . فى مصر.

- وهل نمت الشجرة؟

قال : ستنمو حتماً. . .

- ماهو الإصلاح الدينى الذى تنشده؟

قال : إعادة الصداقة بين العلم والدين، ولكى نصلح

الدين... يجب أن نعود إلى الأصل وهو القرآن والصحيح من الأحاديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه، وأن نفتح باب الاجتهاد، وأن نقضي على التفرقة بين أهل السنة... وأهل الشيعة، فهذه التفرقة أحدثتها مطامع الملوك.

إن الأديان الثلاثة أساسها واحد وقد وسع شقة الخلاف بينها تجار رؤساء الأديان بها.

ـ أظن أن هؤلاء التجار هم الذين يرمونك بالإلحاد.

قال: والجهلاء والحكام الطغاة، والدول الأوربية الطامعة فى غفلة الشرق. إننى شديد الإيمان بدينى، أومن بعقلى، وليس للعقل نهاية. وأومن بمشاعرى إيمان تصوف ينتهى بى إلى وحدة الوجود.

ـ هل تنادى بحرية الرأى حتى «فى المناقشات الدينية؟».

قال: هذا طبيعى... وفى بلادكم شبلى شميل يدعو إلى مذهب داروين، ويعبر عن آرائه الملحدة... وإنى أحمل على هذه الآراء. وأستهجنها، ولكنى أقدر صبره على البحث وشجاعته فى الجهر بما يعتقده.. ولو كان فيه تحد لعقائد الناس.

ـ هل يسمح الإسلام باعتناق المذاهب الاجتماعية المدنية، كالاشتراكية مثلا.

قال: الاشتراكية كانت فى الإسلام ملتقية مع الدين، ملتصقة به وباعثها حب الخير. أما الاشتراكية فى الغرب... فقد بعث عليها جور الحكام.

ـ هل ترى المساواة بين الرجل والمرأة؟

قال: المرأة فى تكوينها العقلى تساوى الرجل، والتفاوت بينهما... إنما جاء من إطلاق سراح الرجل وتقييد المرأة بالبيت، ولكل وظيفته. وليس ثمة ما يمنع من أن تعمل المرأة خارج البيت إذا اضطرتها الظروف إلى ذلك، ولا مانع من السفور، إذا لم يتخذ مطية للفجور؟

ـ لماذا لم تتزوج؟

قال: إن الزواج يتم به بقاء النوع واستكمال حكمة العمران. ويخطئ من يظن مع أبى العلاء المعرى... أنه جناية، أما أنا... فإن معرفتى بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معانى العدل، وعجزى عن القيام به، دفعانى إلى أن أتقى عدم العدل ببقائى عزبًا...

ـ ماهو الحكم المثالى للشعب ؟

قال : أن يحكم نفسه بنفسه، ولن يأتى ذلك إلا إذا تعلم وعرف حقوقه وواجباته وحرياته ومارسها وحرص عليها. وهذا هو سر الصراع القائم بينى وبين الحكام.

ـ أليس الخديو توفيق صديقك ؟

قال : كان كذلك قبل أن يتولى منصب الخديو. كان وليًّا للعهد، وكنت التقى به فى المحفل الماسونى. ووجدت من تعلقه بى ما دفعنى إلى أن أشرح له المبادئ السليمة. وقد اقتنع بها... وأبدى حرصه عليها... ولكنه لم يكد يتولى منصب الخديو حتى أخذ يتنكر لهذه المبادئ، واستدعانى إليه وقال لى : إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح لأن يلقى عليه ما تقوله من الدروس والأقوال المهيجة.

وقد نصحته بالاعتماد على الشعب إذا أراد تثبيت حكمه. وخرجت من عنده لأستأنف الدعوة للمبادئ الإصلاحية بين الناس.

ـ هل خدعك رياض باشا ؟

فضحك فى سخرية !

ـ هل خدعك محمود سامى البارودى ؟

فأطرق برأسه فى حزن وقال :

ـ لقد هالنى موقفه... فقد كان أشرف من عرفت من المسلمين.

ـ ولماذا اختلفت مع المحفل الماسونى ؟

قال : لقد رأيت أن أنضم إلى المحفل الماسونى الأسكوتلاندى، لأنه يضم طائفة من المصريين والأجانب. وظننت أنى أستطيع أن أنقل أفكارى إليهم... ولكن ظنى خاب.

ثم قال : أول ما شاقنى فى «بناية الأحرار» عنوان كبير خطير هو : «حرية. مساواة. إخاء»... وأن غرضها منفعة الإنسان... والسعى وراء دك صروح الظلم، وتشييد معالم العدل المطلق... وقد كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة، عجيبة ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أعمدة المحافل الماسونية...

واستطرد يقول : إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بان حر، وإذا كانت آلات البناء التى فى يدها لا

تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة، وإخاء، ومساواة... فلا حملت أيدى الأحرار مطرقة، ولا قامت لبنايتهم قائمة!

* * *

وكانت الساعة قد أشرفت على الثانية صباحًا، ورأيت أن أريح الشيخ منى... على أن يسمح لى بأن أتعبه مرة أخرى. فدعانى إلى مقابلته فى داره غداً...

ولم أكد أخرج من المقهى... حتى وجدت حىّ الحسين كله ساهرًا بمقاهيه ودكاكينه، بالعربات المضاءة بالفوانيس تحمل الفاكهة والحلوى وشراب العرقسوس والخروب والتمر هندى، والليمون والشاى، والقهوة... بالدراويش يروحون ويجيئون وفى أيديهم مجامر البخور... بصفوف كبيرة من الحمير، والعربات الكارو، فهذه هى الوسائل الوحيدة لنقل الناس من مكان إلى مكان.

وضاع من رأسى كل أثر للإشعاعات التى ملأت الأسماع عن التنكيل بجمال الدين.

وذهبت إلى بيتى وحاولت أن أنام، ولكن صوت الشيخ،

وصورته وأفكاره كانت تغريني بالسهر... كنت أحس أن سهري عليها أحلى من النوم!

* * *

وفي الصباح استيقظت مذعورًا على أصوات غريبة تنطلق في الشارع... من الناس الذين يهرولون في غير قصد ولا هدى من الأبواب والنوافذ... من البيوت والدكاكين والمقاهي... كل الأصوات تصيح: أين جمال الدين الأفغاني؟ اعتقلوه... نفوه... قتلوه.

واتجهت إلى الحي الحسيني، وكان الطريق المؤدي إلى الحي، والناس الذين امتلأ بهم الحي أشبه بخلية نحل تطن بأسئلة ليس لها جواب!

وسهرت مع الناس في المقهى إلى اليوم التالي... وإلى اليوم الثالث. وفي هذا اليوم، بدأ بعض أصدقاء جمال الدين الأفغاني يظهرون في المقهى، ويتحدثون عن قرار الحكومة بطرد جمال الدين الأفغاني من مصر... لقد طردوا جسده... ولم يطردوا أفكاره، لقد طردوا شخصه... ولم يطردوا شخصيته... فما زال الشيخ جالسًا... لا في مكانه من

المقهى أو البيت ـ ولكن... فى كل مكان... وما زال اسمه يدوى اليوم وغدًا، وسيظل كذلك أبداً...

وأقبل الشيخ محمد عبده وحاصره الناس يسألونه: ماذا جرى؟.

وأخذ محمد عبده يروى ما كان من طرد أستاذه... وذكر أن الحكومة قبضت على السيد جمال الدين الأفغانى صباح ذلك اليوم المشئوم... يوم ٥ أغسطس، وقاده جنودها بالقوة إلى محطة سكة الحديد، وأركبوه بالعنف القطار الذاهب إلى السويس، ولقيه قنصل إيران وبعض المصريين الأحرار... فعرضوا عليه مائة دينار ولكنه لم يقبلها.

قال لهم: أنتم أحوج إلى هذا المال.

وقال له أحدهم: أنت فى حاجة إلى المال أكثر منا. فقال: الليث لا يعدم فريسته أينما ذهب!

ومضى محمد عبده فقال: إن الانزعاج بنفى جمال الدين الأفغانى كان عامًّا، ولكن الخديو أبدى سروره بما فعل، وتحدث فى محضر جماعته من المشايخ على مائدة الإفطار فى رمضان... فأظهر الطرب للخديو من كان لا يعرف لنفسه

قيمة فى العلم والفضل فى مجلس جمال الدين الأفغانى.

وقد حتمت الحكومة على الصحف نشر الأمر الصادر بنفى جمال الدين... بما فى هذا البيان من تقريع شديد وتجريح جارح للرجل... فنشره البعض ورفضت إحدى الجرائد نشره... فصدرت التعليمات بتعطيلها!!!

واستطرد محمد عبده يقول: إن هذه الشدة لم تزد الأفكار إلا حدة... ولا الألسن إلا جرأة... ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نموًا وظهورًا. ولم تكن الحكومة كريمة فى معاملة الأفغانى... فرمته بالزندقة، وسمته «ضلال الدين» الأفغانى الأفاق! وقالت فى البيان الذى أصدرته إنها: «أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية، بأمر ديوان الداخلية... لإزالة هذا الفساد من البلاد... عبرة للمعتبرين، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين البادى من أفعالهم الظاهرة أنهم لا خلاق لهم فى الدنيا والآخرة...!

هكذا... كانت عقلية الحكام، وهكذا كان أسلوبهم... كلمات تافهة مسجوعة.

وكان من أثر الهزة التى أحدثها جمال الدين الأفغانى فى

مصر أنه حرر العقول من الجهل والأوهام، ووجهها إلى التفكير والتأمل وفتح فيها نوافذ تطل على الحضارة الإنسانية والثقافة العالمية، وأقنعها بضرورة التعرف على مصدر قوة أوربا الطامعة فى الشرق... والعمل على أن نكون أقوياء لنواجه القوة بالقوة. ولم يقف عند هذا... بل أثر فى أسلوب الكتابة، فكان ينادى بأننا لسنا فى حاجة إلى الكلمات اللغوية... ولكننا فى حاجة إلى الكلمة التى «تنقر حبة القلب».

وقبل إقامة الأفغانى فى مصر... كان الأدباء يحصرون مواهبهم فى مدح الكبير والتغنى بمآثر الوزير، فإذا خرجوا من هذا النطاق نظموا الشعر الماجن. وتبارزوا فى تبادل الهجاء بقصائد أو مقطوعات نثرية تعتمد على التلاعب باللفظ والإغراق فى الجون... ليضحكوا أرباب الجاه ويتلقوا منهم الهدايا!

وجاء الأفغانى...! فجعل للأدب هدفًا، وحوله من تسلية وترف إلى تعبير عن آمال الشعب وانفعال بمآسيه، وجعل من الكلمة سلاحًا ونشيداً، وأغنية.

وكان الأديب المؤرخ اللبنانى سليم العنجورى يقيم فى مصر، وكان من أصدقاء الشيخ وقد وصفه فقال :

كان جمال الدين الأفغانى يقطع بياض نهاره فى داره، حتى إذا جن الظلام... خرج متوكئًا على عصاه إلى مقهى قرب الأزبكية وجلس فى صدر جماعة تلتف حوله على هيئة نصف دائرة، ينتظم فيها اللغوى، والشاعر، والمنطق، والطبيب، والكيماوى، والتاريخى، والجغرافى، والمهندس، والطبيعى، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه... فيحل عقد أشكالها بلسان عربى مبين، لا يتلعثم ولا يتردد، بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال. حتى إذا اشتعل رأس الليل شيبًا قفل إلى داره بعد أن ينقد صاحب المقهى كل ماله فى ذمة ذلك الجمع الأنيق.

وكانت الحكومة قد خصصت للأفغانى عشرة جنيهات شهرية، ثم قطعتها عنه، فكان بعض الأعيان يمدونه بالمال وهم يتوسلون إليه أن يقبله منهم... فكان يأخذ فقط القليل الذى يكفيه.

ويقول العنجورى : إن جمال الدين الأفغانى أخذ يقرب

إليه العوام ويقول لهم : إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم، وأنتم تحملون نير الفاتحين، وتسومكم حكوماتكم الحيف والجور، وتستنزف عرق جباهكم بالعصا والمقرعة، والسوط، وأنتم صامتون . . .

انظروا أهرام مصر، وهياكل ممفيس، وآثار طيبة، ومشاهد سيوه وحصون دمياط، فهى شاهدة بعظمة آبائكم وعزة أجدادكم، هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم. عيشوا كباقى الأمم أحرارا . . .

ويرى العنجورى أنه منذ ذلك الحين طارت شرارة الثوره العرابية.

وقد سجل جمال الدين الأفغانى فى خاطراته التى جمعها المخزومى باشا. أنه ترك المحفل الماسونى الأسكوتلاندى وألف محفلا آخر تابعًا للشرق، وسرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين، وكان جمال الدين فى هذا المحفل مطلق الحرية. نظم فيه لجانًا للأعمال المختلفة . . . بعضها للحقانية، وأخرى للمالية وثالثة للأشغال،

ورابعة للجهادية، إلخ... وكل لجنة أو كل شعبة ـ كما كان يسميها ـ تدرس الشئون المختصة بها وتعرف وجوه إصلاحها وما يقع من الظلم فيها، ثم تتصل بالوزير المسئول وتبلغه رغباتها...

بهذا التفكير المنتظم، وهذه العقلية النيرة، والروح الثائرة، استطاع جمال الدين الأفغانى أن يدخل الكهرباء فى عقول الشعب ومشاعره، وكانت هذه المشاعر قبل ذلك ظلمات جامدة تتعرض بين حين وآخر لشمعة أو ذبالة مصباح... فأشاع فيها الهزة، والحرارة، والضوء!

* * *

ونتابع جمال الدين الأفغانى بعدما رحل من مصر، فنراه فى الهند يقيم فى «حيدر أباد»، وكان قد أحدث فيها هزة فكرية دينية كبيرة، فلما قامت الثورة العرابية... نقلته السلطات البريطانية فى الهند إلى «كلكتا»، ووضعته تحت الحراسة، وعندما انتهت ثورة عرابى ودخل الإنجليز مصر ـ سمحت له السلطات البريطانية بمغادرة الهند إلى أى بلد غير شرق!

وقد ذكر مستر بلنت فى مذكراته أن جمال الدين غادر الهند إلى أمريكا... ولكن العالم المحقق الأستاذ أحمد أمين استبعد صحة هذه الواقعة.

ولقد أقام جمال الدين فى لندن عام ١٨٨٣، وأرادت السلطات البريطانية أن تكسب صداقته... فعرضت عليه عرش السودان... فسخر من هذا العرض وقال: إن عرش السودان للسودان فليس لكم أن تعطوه أحداً!

ثم ذهب إلى فرنسا، ومن هناك اتصل فى مصر بتلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، واتفقا على إصدار جريدة «العروة الوثقى» من باريس، وتعد مجموعة هذه الجريدة سجلا حافلا بآراء جمال الدين الأفغانى السياسية والدينية والاجتماعية، وكانت سوط عذاب يلهب ظهور الدول الاستعمارية، ورعشة تمشت فى أذهان الشعوب الشرقية فهبت لتدافع عن كرامتها وحريتها ودينها، وكانت مقالاتها تحمل أفكار الأفغانى، وأسلوب محمد عبده.

وفى باريس... اشتبك الأفغانى فى جدل علمى دينى مع الفيلسوف «رينان»، وقد لفت إليه أنظار المفكرين الإنجليز

والأمريكان والمستشرقين... فكتبوا عنه وألقوا محاضرات عن آرائه وتعاليمه وشخصيته ولم تستطع جريدة العروة الوثقى أن تستمر فى الصدور.

* * *

وذهب محمد عبده إلى بيروت، وكان شاه إيران قد اتصل بالأفغانى، وأقنعه بالعودة إلى إيران... فعاد إليها، ثم ما لبث أن تركها وسافر إلى روسيا وأقام بها ثلاث سنوات. وقد سأله القيصر عن سر خلافه مع الشاه فقال: لأنى أرى أن يكون الحكم شورى، أما هو... فيرى غير ذلك!!

قال القيصر: الحق مع الشاه.. إذ كيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته؟

قال جمال الدين: أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه، من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص.

وغضب القيصر ونهض واقفًا إيذانًا بانتهاء المقابلة!

* * *

وكان قد سافر إلى ألمانيا فى طريقه إلى باريس، وتقابل

مع ناصر الدين شاه إيران، واعتذر له الشاه، ووعده بتنفيذ تعاليمه الإصلاحية وعرض عليه العودة إلى طهران.

ولما وصل إلى طهران، لقى حفاوة كبيرة من الشعب ورعاية من الشاه، ولكن الصدر الأعظم نبه الشاه إلى خطورة ما يدعو إليه جمال الدين، وبغتة... أمر الشاه بالقبض على الأفغانى، فأسرع الأفغانى واحتمى فى مقام سيدنا «عبدالعظيم»، وهو مقام يقدسه أهل فارس... ولكن الشاه أرسل إليه خمسمائة جندى مسلحين، وانتزعوه من المقام المقدس.

ويصف جمال الدين ذلك فيقول: «سحبونى على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة، ثم حملنى زبانية الشاه - وأنا مريض - على دابة مسلسلا بين الثلوج والريح»...

وبعد ذلك سافر إلى لندن، واشترك فى إصدار مجلة شهرية اسمها «ضياء الخافقين»، وكانت تصدر باللغتين... الإنجليزية والعربية، وقد صب فيها جام غضبه على الشاه.

وطلب منه سفير فارس أن يكف عن الطعن فى الشاه، وعرض عليه أموالا طائلة... وقد احتقر جمال الدين الأفغانى

الطلب والعرض وقال للسفير: لن أسكت عن الشاه حتى يلق ربه!

وتوسل الشاه إلى السلطان عبدالحميد أن يتوسط لدى جمال الدين الأفغانى ليصلح بينهما، فدعاه عبدالحميد إلى زيارة الآستانة، ولما استقبله مندوبو السلطان فى الميناء سألوه عن حقائب ملابسه وصناديق كتبه... فقال: ملابسى على بدنى وكتبى فى صدرى! ولم يكن معه حقيبة أو صندوق!

واستقبله عبد الحميد أحسن استقبال، وأمر بصرف مكافأة شهرية له قدرها ٧٥ ليرة، وأنزله بيتًا أنيقًا يقع قرب قصر يلدز، وخصص له عربة وخدمًا وجواسيس!! وعرض عليه السلطان عبدالحميد منصب مشيخة الإسلام... ولكنه رفض المنصب إلا إذا قبل السلطان تنفيذ آرائه الإصلاحية.

واشتبك فى معارك مع رجال الدين الجامدين فى تركيا ومع «أبوالهدى» الصياد جلاد الفكر، وجاسوس السلطان المعروف.

وساءت العلاقة بينه وبين السلطان... أخذوا عليه أن السلطان عندما طلب منه أن يترك مهاجمة الشاه... أجابه

قائلا : من أجلك قد عفوت عن الشاه . . .

وقالوا : كيف يعفو أحد الرعية عن ملك !

وأخذوا عليه أنه كان فى حضرة السلطان وظل يلعب بحبات مسبحته، وبعدما خرج نبهه رئيس الديوان إلى أن اللعب بحبات المسبحة لا يجوز فى حضرة السلطان . . . فقال جمال الدين إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بمسبحته كما يشاء ؟!

وظل جمال الدين الأفغانى يعانى الضيق والكبت والعزلة عن الناس طيلة إقامته فى الآستانة. فقد تحول بيته إلى معتقل، وأصبح رواد مجلسه جواسيس . . . وفى هذه الفترة كان ناصر الدين يزور أوربا، وقابله أحد تلامذة جمال الدين وطعنه بخنجر فى صدره فأرداه قتيلا، وقال وهو يطعنه : « خذها من يد جمال الدين » !!

وبلغ الخبر السلطان عبدالحميد، فضيق الخناق على تحركات جمال الدين الأفغانى، ومنعه من مغادرة تركيا. وقد وصف جمال الدين الأفغانى إقامته فى الآستانة . . . فقال إن البيئة هناك أثرت فى عقله وفكره وقلبه، وإن ذهنه كان

ممسوحًا كأن لم يكن فيه شيء من العلوم والآراء!

وبقى جمال الدين الأفغانى فى تركيا حبيسًا - كما قيل - فى قفص من ذهب. كان يتردد عليه بعض زائرى الآستانة من أحرار المسلمين مثل الأمير شكيب أرسلان وعبدالله النديم، وكان النديم يغار من حب جمال الدين الأفغانى لمحمد عبده، ولما غضب جمال الدين الأفغانى على الشيخ محمد عبده، لأنه ينشر مقالاته بدون توقيع، أرسل إليه يلومه على ذلك ويقول: «لماذا تكتب ولا تمضى، ولماذا تعقد الألغاز؟ أمامك الموت ولا ينجيك الخوف... فكن فيلسوفًا يرى العالم ألعوبة، ولا تكن صبيًا هلوعًا»!.

وانتهز عبد الله النديم هذه الفرصة... وقال لجمال الدين الأفغانى إنك لا تزال تصف الشيخ عبده بأنه صديقك، ومازلت تسرف فى الثناء عليه... كأنه لم يكن لك صديق غيره... فضحك الأفغانى وقال له: وأنت ياعبدالله صديق... ولكن الفرق بينكما أنه كان صديق فى الضراء، وأنت صديق فى السراء!!

وعندما تلقى الشيخ عبده رسالة جمال الدين... تملكه الحزن

وكرر حكمته المأثورة : هذا رجل يهدم بالحدة ما يبنيه بالفطنة.

* * *

ومرض الأفغانى فى الآستانة وأرسل إليه عبدالحميد طبيبه الخاص فغمس لسانه فى ميكروب فأصيب بمرض عضال ومات فى عام ١٨٩٧، وأمر السلطان بدفنه على عجل...

مات الأفغانى شخصًا، ليحيا أفكاراً، ومشاعر، وثورات، ويعيش فى كل عقل وكل قلب وكل زمن!.